﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ [النّحل: 86]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ازديادُ المشركين حيرةً وارتباكًا حين معاينة معبوداتهم

عندَما ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ ما كانَ منْ أمرِ هؤلاءِ في البعثِ والجزاءِ، وأمرِ شركائِهم، عطفَ عليهِ رؤيةَ المشركينَ شركاءَهُم، ووصفوهُمُ الوصفَ المناسبَ باتّخاذِهم أربابًا منْ دونِ اللّهِ، فهلّا أكرمتَنا لأجلِهم؛ وذلكَ جريًا منهم على منهجِ الغباوةِ والجهلِ الّذي كانَ منهم في الدّنيا، فما كانَ منْ الشّركاءِ إلّا تكذيبهُم، والتّخلّي عنهُم مرةً أخرى، وإنكارُ استحقاقِهم العبادةَ، أو أن يكونوا لهم من الشّافعين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَدۡعُواْ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ ﷻ دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أيْ: نادَيْتُهُ[2]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ من الدُّعاءِ[3]، ويأتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّهَ، أدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ[4]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[5]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أيْ: حَثَّهُم ورَغَّبَهُم[6]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: العِبادة والضَّراعة.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230 - 231.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (دعا - دعو).
(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 3644.
(6) الأمير، التّحبير لإيضاح معاني التّيسير: 4/ 5.

2) ﴿مِن دُونِكَۖ﴾: (دون): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى المُداناةِ والمُقارَبَةِ. يُقالُ هذا دونَ ذاكَ، أي: هو أقرَبُ مِنهُ، ويُقالُ للقاصِرِ عَنِ الشَّيءِ: دونٌ، قال بعضهم: هو مقلوب من الدُّنوِّ، والأدون: الدّنيء[1]، ولِـ(دون) تسعةُ معانٍ: دون بِمَعْنى قبل، كقولك: دونَ النَّهرِ قِتالٌ، ودون بِمَعْنى: وراء، كَقَوْلِك: هَذا أمير على ما دون جَيْحونَ، أي: على ما وراءَه، وبمعنى الوعيدُ، كَقَوْلِك: دونَك صِراعي، وفي الأمر: دونَك الدِّرهَم، أي: خُذْهُ، وفي الإغراء: دونَك زيدًا، أي: الزَم زيدًا في حفظه، ودونَ بِمَعْنى تَحت، كَقَوْلِك: دون قَدَمِكَ خَدُّ عَدوِّكَ، أي: تَحت قَدَمِكَ، ودون بِمَعْنى: فوق، كَقَوْلِك: إنَّ فلانًا لَشَريفٌ، فيجيبُ آخرُ فيقولُ: ودونَ ذَلِك، أي: فوق ذَلِك، وكذلكَ الدّون يكون صفةً ويكون نعتًا على هذا المَعْنى، ولا يُشْتَقُّ مِنْهُ فعل، ويُقالُ: هذا دون ذَلِك في التَّقْريب والتَّحقير، فالتَّحقيرُ مِنْهُ مَرْفوع، والتَّقريب مَنْصوب لِأنَّهُ صفته، ويُقال: دونُك زَيدٌ في المَنزلَة والقُرْبِ والبُعْدِ[2]، والمقصود بدون في الآية: نقيضُ فوقَ، وهو تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ.

3) ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾: أَصْلُ (لقي): يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[3]، واللَّقي: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذ[4]، والإلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[5]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلام ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المَائِدَة: 64][6]، والمُراد بالإلقاء في الآية: الإخْبارُ الصَّريحُ على وجْهِ الاستعارةِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيِّنُ الآيةُ حال الَّذين ظلموا النّاس وظلموا أنفُسَهم وعقولَهم معَ مَن أشركوهم مع الله في العبادة، أو عبدوهم من دون الله، فما هي حالهم من هذه الأنداد الَّتي اتَّخذوها آلهة من دون الله، أجاب الله تعالى عن ذلك، فقال: وإذا رأى المُشركونَ يومَ القيامةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (دون).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 123.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

مَعبوداتِهم التي جَعَلوها شُرَكاءَ للّه في العبادةِ، قالوا: ربَّنا هؤلاءِ الذين كنّا نَعبُدُهم مِن دونِك، ونَجعَلُهم شُرَكاءَ لك، فقال للمُشرِكينَ شُرَكاؤُهم الذين كانوا يَعبُدونَهم: إنَّكم لكاذِبونَ في ادِّعائِكم أنَّنا آلِهةٌ، وما أمَرْناكم بعِبادتِنا[1].

تبرُّؤُ الآلهة المزعومة من عبادة عابديها

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى فضيحةِ الكفار مع آلهتهم يومَ القيامة، فيُنطقُ اللّهُ الأصنام؛ بتكذيبِ مَن عبدها بأنها لم تكن آلهةً، ولا أمرتُهم بعبادتها، وإلى براءةِ الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناسُ في عبادة الله من المشركين بهم والتبرؤ منهم وتكذيبهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ الجملةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا﴾:

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ معطوفٌ على ما سبقَ من قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ وفيه تسليةٌ أخرى للرّسولِ ﷺ، وهي من بقيّةِ وعيدِه تعالى المشركينَ[3]؛ فالَّذينَ أشْرَكُوا هم الَّذينَ ظلَمُوا (الَّذينَ يَرَوْنَ العذابَ)، وهم الَّذينَ كَفَرُوا والَّذينَ لا يُؤْذَنُ لَهم، وإجْراءُ هَذِهِ الصِّلاتِ الثَّلاثِ عَلَيْهِمْ لِزيادَةِ التَّسْجيلِ عليهم بأنواعِ إجْرامِهم الرّاجِعَةِ إلى تَكْذيبِ ما دَعاهُمُ اللَّهُ إلَيْهِ؛ ولذلكَ أظهرهُ، والمقامُ مقامُ إضمارٍ[4].

وعيدٌ للمشركينَ وإجراءُ هذهِ الصّلاتِ عليهم لزيادةِ التّسجيلِ عليهم بأنواعِ إجرامهم

لطيفةُ استعمالِ لفظَي ﴿وَإِذَا رَءَا﴾ وتكرارِهما:

ولمّا كانت رؤيةُ العذابِ في الآيةِ السّابقةِ عذابًا نفسيًا ممهِّدًا للعذابِ الجسديّ؛ كرّرهُ هنا لنوعٍ آخرَ من العذابِ، فإنَّ الحقَّ سبحانهُ يبعثُ معبوداتِهم من الأصنامِ، والقصدُ منْ إعادتِها أنْ

رؤيتُهم الأصنامَ بسربالِ الذّلّةِ والحقارةِ ممّا يورثُهم مزيدًا من الغمِّ والحسرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 328، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 593، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4243.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 149.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 256.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 246.

يشاهدَها المشركونَ وهيَ بسربالِ الذّلّةِ والحقارةِ، معَ تكذيبِ منْ كانوا يشركونها؛ وذلكَ كلّهُ ممّا يوجبُ مزيدًا من الغُصّةِ والحسرةِ في نفوسهِم[1]، فضلًا عمّا ينتظرهُم من عذابٍ جسديّ.

نوعُ الرّؤيةِ هنا ومعناها:

الرؤيةُ العينيةُ المباشرةُ أزيدُ في التّحسّرِ والعذابِ

والرّؤيةُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ بصريةٌ بموجبِ تعدّي الفعلِ ﴿رَءَا﴾ إلى مفعولٍ واحدٍ هو قولهُ: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾؛ فالرّؤيةُ عينيةٌ[2]، وفي ذلكَ توكيدُ خسرانهِم بشركهِم، معَ مزيدِ تحسّرٍ وعذابٍ.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ:

الموصولُ يفيدُ عِلّيّةَ الصّلةِ للحكمِ

وعبّرَ عن النّاكبينَ عنْ طريقِ الحقِّ - وهم المشركونَ - بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾، فجعلَ فعلَ الإشراكِ صلةً، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إيرادَ الموصولِ يفيدُ علّيةَ الصّلةِ للحكمِ، وهوَ الإشراكُ؛ فكانَ مصيرُهُم رؤيةَ العذابِ ومباشرَتَهُ.

سرُّ استعمالِ الماضي ﴿أَشْرَكُواْ﴾:

تحقُّقِ وقوعِ الإشراكِ منهم وعراقَتُهم فيهِ

وجاءَ التّعبيرُ القرآني بصيغةِ الماضي ﴿أَشْرَكُواْ﴾؛ للإيذانِ بأنّ الإشراكَ والكفرَ قد حصلَ منهُم فعلًا، وأنّهم عريقونَ فيهِ؛ فكانَ سببًا لرؤيتهِم العذابَ، والارتكاسِ فيهِ.

فائدةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في: ﴿أَشْرَكُواْ﴾:

التّعبيرِ بالإشراكِ بعدَ الظّلمِ توكيدٌ لذلكَ المعنى

وقولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾، وضعٌ للظّاهرِ موضعَ المضمرِ؛ لأنّ ما سبقَ جارٍ في سياقِ الّذين ظلموا، وهو عامّ في أنواعِ الظّلمِ، ثمّ قالَ: ﴿أَشْرَكُواْ﴾؛ لأنّ الشّركَ نوعٌ من الظّلمِ، ولمّا أرادَ تأكيدَ المعنى[3] أوردهُ ظاهرًا، معَ جوازِ الاكتفاءِ بالضّميرِ العائدِ على ما سبقَ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 203.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.

علةُ الجناسِ في قولهِ: ﴿أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾:

وفي قولهِ تعالى: ﴿أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أسلوبٌ يدعى: "جناسُ الاشتقاقِ"[1]، وهوَ من التّعبيراتِ اللّطيفةِ؛ لإيرادِ المعنى المطلوبِ، وهوَ بيانُ صفتهم في اتّخاذهم غيرَ اللّهِ معبودًا، ولتحليةِ الكلامِ في الوقتِ نفسهِ فجاءَ بـ"أشركوا ليناسبَ شركاءهُم، ولكونِ الشّركِ ظلمًا عظيمًا عبّرَ فيما قبلَهُ بالذينَ ظلموا"[2]، ففيهِ الوقوعُ على المعنى المرادِ وفيه مناسبةُ اللّفظِ لقرينهِ.

الوقوعُ على المعنى المرادِ مع مناسبةِ اللّفظِ لقرينهِ تحليةً للكلامِ

فائدةُ الإخبارِ بقولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾:

وقولهُم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ إمّا من قَبيلِ الاعترافِ عَنْ غَيْرِ إرادةٍ؛ فَضْحًا لَهم، وإمّا من قَبيلِ التَّنَصُّلِ وإلْقاءِ التَّبِعَةِ عَلى المَعْبُوداتِ، كَأنَّهم يَقُولُونَ: هَؤُلاءِ أغْرَوْنا بِعِبادَتِهِمْ[3].

اعترافًا عنْ غيرِ إرادةٍ فضحًا لهُم وتنصّلًا وإلقاءَ التّبعةِ على المعبوداتِ

بلاغةُ الحذفِ في قولهِ: ﴿رَبَّنَا﴾:

وفي قولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أوردوا نداءَ ربّهم محذوفًا منهُ أداةُ النّداءِ (يا)، وهوَ ممّا يكثرُ في الأسلوبِ القرآنيِ؛ لما فيهِ منْ معنى التّعظيمِ والتّنزيهِ؛ فإنَّ النّداءَ فيهِ لمحٌ منْ معنى الأمرِ؛ فهوَ بمعنى (أدعو) فحذفُ (يا) زوالٌ لمعنى الأمرِ تعظيمًا وإجلالًا[4]، ولمّا كانَ هؤلاءِ النَّفرُ في موقفِ ضعفٍ بتربّصِ عذابهم؛ كانَ ذلكَ الحذفُ كالتّمهيدِ بتعظيمهِ وتوقيرهِ تعالى ظنًّا منهم أنَّ ذلكَ شافعٌ لهم.

حذفُ حرفِ النداءِ لتعظيمِ اللهِ وتوقيرهِ ظنًّا منهُم أنّ ذلكَ يشفعُ لهُم

فائدةُ التّعبيرِ بالرّبّ في ﴿رَبَّنَا﴾:

وآثرَ التّعبيرِ بلفظِ الرّبّ في قولهِ: ﴿رَبَّنَا﴾ دونَ غيرهِ من أسمائهِ

يا مَنْ أحسنَ إلينا وربّانا ثمّ أشركنا غيرهُ في عبادتهِ

(1) ويسمّى الاقتضاب أيضًا، ومنهم من عدّه أصلًا برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في الجناس، بأن يأتي بألفاظ من أصل واحد في اللّغة كقوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، فـ(الرّبا) و(يربي) متجانسان من اشتقاق واحد. يُنظر: النّويري، نهاية الأرب: 7/ 95.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 357.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.

(4) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 1/ 285.

تعالى وصفاتِه؛ للدّلالةِ على الإحسانِ والتّربيةِ[1]، وفيهِ اعترافٌ بأنّهُ الخالقُ المربّي القائمُ على الخلقِ، وفي الوقتِ نفسهِ ففيهِ تعريضٌ بهم، فمعَ إحسانهِ إليهِم أشركوا معهُ غيرهُ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قولهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

جريًا على اعتقادِهم إلهيّةَ الأصنامِ الّتي يعبدونَ

وفي قولهِم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ تعبيرٌ عن الأصنامِ بالمجموعِ من اسمِ الإشارةِ الموضوعِ للعقلاءِ، ودلالةٌ ذلكَ عندهُم أنّهم أجرَوها على اعتقاداتِهم وظنونِهم إلهيةَ الأصنامِ والأوثانِ الّتي يعبدونَها[2].

فائدةُ إضافةِ (شركاء) إلى ضميرِ المتكلّمينَ:

تعبيرًا عن آلهتِهم الّتي جعلوها شركاءَ فإضافتُها صحّت بأدنى ملابسةٍ

وفي إضافةِ الشّركاءِ إلى ضميرِ المتكلّمينَ في قولهِم: ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾ إضافةٌ إلى أنفسهِم "منْ حيثُ هم جعلوهُم شركاءَ، وهذا كما يصفُ رجلٌ آخرَ بأنّهُ خيرٌ، فتقولُ أنتَ ما فعلَ خيرُكَ؛ فأضفتهُ إليهِ منْ حيثُ وصْفُهُ هوَ بتلكَ الصّفةِ"[3]، يعني آلهتُهم الّتي جعلوها شركاءَ فماذا أغنت عنهم؟ فإضافتُها إلى ضميرِ المتكلّمينَ؛ لأنّ الإضافةَ تصحُّ بأدنى ملابسةٍ لفظيةٍ أوْ معنويةٍ.

المرادُ بالشُّركاءِ الأصنامُ أي الشّركاءُ لله حسبَ اعتقادِهم

وإشراكُهُم الأصنامَ هنا مقصودٌ منهُ الاشراكُ في صفةِ الإلهيةِ معَ الحقِّ سبحانهُ، فالمتعيِّنُ أنَّ المرادَ بالشّركاءِ هم الأصنامُ والأوثانُ، أيْ: الشّركاءُ للهِ بحسبِ اعتقادِهم؛ فعلى هذا الاعتبارِ أضيفَ لفظُ الشّركاءِ إلى ضميرِ الظّالمينَ[4].

تهكّمًا من شراكتِهم المزعومةِ الّتي لم تفدهم إلّا ضرًّا وإيرادًا المهالكَ

وفي قولهِم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ "أضافوهُم إلى أنفسهِم؛ لأنّهُ لا حقيقةَ لشركتِهم سوى تسميتِهم لها الموجبِ لضرّهِم"[5]، فالإضافةُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 414.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.

هنا قصدًا إلى التّهكّم، أي: ماذا فعلَ شركاؤُكم المزعومونَ سوى ضرّكم وإيرادكُم المهالكَ.

دلالةُ وصفِ شركائهِم بالموصولِ وصلتِهِ:

التّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتِه في قوله: ﴿شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾ دالٌّ على العقلاءِ؛ لأنَّ المشركينَ اعتقدوا أنّهم عقلاءُ، أوْ لأنَّ فيهم منْ ينتمي إلى جنسِ العقلاءِ؛ فأُطلقَ عليهم ذلكَ الوصفُ تغليبًا[1].

اعتقادُ المشركينَ أنّهم عقلاءُ أوْ عبّرَ عنهم تغليبًا

فائدةُ لفظِ ﴿كُنَّا﴾:

وفي قولِه: ﴿كُنَّا نَدۡعُواْ﴾، استعملَ فعلَ الكونِ في دعاءِ شركائهِم منْ دونِ اللّهِ تعالى؛ لما يشيرُ فعلُ الكونِ إلى جبلّتِهم وطباعِهم الّتي كانوا عليها؛ فهوَ دالٌّ على استمرارِهم في الشّركِ، وعلى عراقتِهم فيهِ حتّى نالوا نصيبهُم من العذابِ في الآخرةِ بمدعاةِ الاستمرارِ في كفرِهم.

الإشارةُ إلى جِبِلّتِهم وطباعِهم وعراقتِهم في الكفرِ والإشراكِ

إيثارُ لفظِ ﴿نَدۡعُواْ﴾:

وآثرَ التّعبيرَ بفعلِ الدّعاءِ في قولِه: ﴿نَدۡعُواْ﴾، وهوَ دالٌّ على العبادةِ، أي: نعبدُ؛ لأنّ الدّعاءَ من أبرزِ أنواعِ العبادةِ[2]، وجُعلَ الدّعاءُ هو العبادةُ لقولِه ﷺ: "الدُّعاءُ هوَ العبادةُ" ثُمَّ قرأَ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: 60][3]، وتعبيرهُم بالدّعاءِ بمعنى العبادةِ دالٌّ على إقرارِهم واعترافِهم بذنبِهم بأنَّ عبادةَ غيرِ اللّهِ كانت منهم عن عمدٍ وإصرارٍ.

الدعاء هو العبادةُ، وعبادتهُم لغير اللهِ كانت عن إصرارٍ وعنادٍ

فائدةُ القيدِ بـ ﴿مِن دُونِكَۖ﴾:

وفي التّقييدِ بالجارّ والمجرورِ في قولِه: ﴿نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ فائدةٌ،

التعلُّق بمعبوداتهم بجهلهم وغباوتهم

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.
(3) رواه الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (18391)، وأخرجه الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3247)، والنسائي، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11464)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (3828)، وهو صحيح.

فإنّه لمّا كانتِ المراتبُ كثيرةً دونَ رتبةِ اللّهِ تعالى؛ لأنّ عُلوَّهُ مطلقٌ غيرُ منحصرٍ، فكأنّما أرادوا القولَ إنَّ هؤلاءِ الشّركاءِ كانوا الأقربَ رتبةً منهُ تعالى، فهلّا أكرمتَنا لأجلِهم؟ جريًا على منهجِهم وطريقِهم الدّنيويِّ في الجهلِ والغباوةِ[1].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَلْقَوْا﴾:

تعقيبًا ومبادرةً بتكذيبِ أنّ الأصنامَ شركاءُ للهِ

والفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ دالّةٌ على التّعقيبِ؛ مبادرةً بتكذيبِ ما وردَ في مقالِهم، فقد أنطقَ الحقُّ سبحانهُ تلكَ الأوثانَ لتكذّبَ ما اشتملَ عليه مقالهُم من أنّ الأصنامَ شركاءُ للّهِ، أو أنّ عبادتهُم كانت بإغراءٍ منها، فكانَ أن فُضحوا، وأصبحت حسرةً عليهِم[2].

سرُّ استعمالِ الفعلِ (ألقوا):

تصويرُ سرعةِ مبادرةِ معبوداتهم بتكذيبهم

والتّعبيرُ بفعلِ الإلقاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا﴾، أي: الشّركاءُ إلى المشركينَ ﴿الْقَوْلَ﴾، مبادرينَ بهِ على وجهِ السّرعةِ، كأنّهُ شيءٌ ثقيلٌ أسرعوا بإلقائهِ من عَلٍ[3].

بيانُ نطقِ الأصنامِ على غيرِ المتعارفِ كسقوطِ القولِ منْ أفواهِها

وقدْ يردُ سؤالٌ مفادهُ إنكارُ أنْ تكونَ الأصنامُ ناطقةً، والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ نطقَها جارٍ على خلافِ العرفِ والعادةِ؛ فعبّرَ عنْ ذلكَ بالإلقاءِ المُؤذِنِ بأنَّ الحقَّ سبحانهُ أجرى القولَ على أفواهِ الأصنامِ منْ غيرِ نطقٍ منها حقيقةً؛ فكأنَّ القولَ قدْ سقطَ منها[4].

دلالةُ إسنادِ فعلِ الإلقاءِ:

إسنادُ الإلقاءِ إلى ضميرِ الشّركاءِ مجازٌ عقليٌّ لأنّها مَنْ أظهرَ القولَ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أسندَ فعلَ الإلقاءِ إلى ضميرِ الشّركاءِ، وهم الأصنامُ والأوثانُ، وهو إسنادٌ مجازيّ[5]؛ لأنّ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 231.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 248.

القولَ صادرٌ منها، وإن كانَ على غيرِ الحقيقةِ فإنّهم لا ينطقونَ، فإنَّ الشّركاءَ كانت جمادًا مواتًا لا علمَ لها بعبادةِ عابديها[1].

دلالة التجانس بين ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ و﴿ٱلْقَوْلَ﴾:

انسجامُ الجَرْس للدلالة على تَعرية حقيقتهم

نلحظ اشتراك لفظتي ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ في أكثر أحرفهما، مع اختلاف جذريهما الاشتقاقي، فالأول فعل ماضٍ من الإلقاء، والآخر اسم مصدر من القول، وهذا من الجناس المذيَّل[2]، فيه تتجانس الأصوات، وينسجم جَرْسُها، وتتماثل ذواتُها وصفاتها، ولم يأتِ ذلك إلا لحكْمة، ولم يرِدْ إلا لفائدة، وذلك ليبين فضيحتهم يوم القيامة، وأنّ كلّ شيء ينطق مطابقًا الحقيقةَ بإذن الله تعالى من غير إرادة من المخلوق.

علةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تفسيرُ ما تقرَّر بأنَّ عبادتَكم مجردُ أسطورةٍ من إنشائِكم وحدكُم

ولمّا كانت جملةُ ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تفسيريةً لما ألقيَ من القولِ، فصلَها عنْ سابقتِها منْ غيرِ عطفٍ؛ لتمامِ الاتّصالِ الّذي يوجبُ فصلَ الجملتينِ، أيْ: كذّبَ الشّركاءُ المشركينَ بهذهِ الجملةِ، فلسنا شركاءكُم، بلْ ما تدعونَ مجردُ أسطورةٍ منْ إنشائِكم وحدكُم لا شأنَ لنا فيها[3].

نكتةُ تعدُّدِ التّأكيدِ في قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مقابلةً حين زادت المعبوداتُ دَفْعَ التّهمةِ عنْ نفسِها

وأكّدَ جملةَ ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعددٍ من المؤكّدات، وهيَ: (إنَّ) واللّامُ الدّاخلةُ على الخبرِ، والجملةُ الاسميةُ[4]، والمعنى: أنَّ الآلهةَ ألقت إليهم القولَ تكذيبًا لمنْ عبدَها بأنّها لم تكنْ آلهةً[5]، ولمّا أرادت

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 167.
(2) الجناس المذيَّل هو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفًا في آخره، فصار له كالذيل كقول أبي تمام:
يمدّون من أيدٍ عواص عواصم *** تصول بأسياف قواض قواضبِ
ينظر: ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع، ص: 22.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 173.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4244.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 163.

تلكَ الأصنامُ زيادةَ دفعِ التّهمةِ عنْ نفسِها، وأنّها لم تُغْرِ هؤلاءِ بإشراكِها زادَ التّوكيداتِ في الجملةِ.

حـــرصًـــا عـلى تكذيبِ الشّركاءِ عـلى أتـــمّ وجـهٍ وأبلغه

وفي توكيدِ جملةِ ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بغيرِ ما مؤكّدٍ مرمى بعيدٌ، وهو حرصُ المعبودين على إثباتِ صفةِ تكذيبِ الشّركاءِ على أتمّ وجهٍ، وأبلغِ تأكيدٍ[1]؛ إفحامًا للمشركين إفحامًا قاطعًا.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ في الآية:

هـنـا المـقـامُ لتكذيبِ الآلهةِ مَـن عـبـدوها، وفـــي الـكـهـفِ الأمـــرُ متعلّقٌ بالشّفاعةِ

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف: 52].

للسّائلِ أنْ يسألَ عنْ وجهِ الجمعِ بينَ إثباتِ النّطقِ للأصنامِ في الآيةِ الأولى، ونفيها عنها في الآيةِ الثّانيةِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ آيةَ النّحل قد أنطق الحقُّ سبحانهُ الأوثانَ لتكذيبِ المشركينَ في دعوى عبادتهم، أمّا آيةُ الكهفِ فإنَّ المرادَ بمناداةِ مَن هم شركاءُ للّه في العبادة النُّصرةُ والشّفاعةُ لهم، أوْ لدفعِ العذابِ عنهم، فلم يجيبوهُم، فالأمرُ متعلّقٌ بالنُّصرةِ والشّفاعةِ ودفعِ العذابِ، وهنا بالتّكذيبِ؛ فلا تناقضَ بينَ المقامين في المثبَتِ والمنفي[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّعاء والعبادة:

العبادةُ أشملُ والـدّعـاءُ أظهرُ أنواعِ العبادةِ

وعبّرَ عن عبادةِ الشّركاءِ في الدّنيا بقولهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾، فجاءَ بفعلِ الدّعاءِ، ومعناهُ في لغةِ العربِ النّداءُ، إلّا أنَّ الدّعاءَ يكونُ برفعِ الصّوتِ وخفضهِ، فقد يدعو المرءُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 444.

(2) الرّازي، أنموذج جليل، ص: 301، والأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 314 - 315.

بعيدًا، وقدْ يدعو اللّهَ في نفسهِ[1]، أمّا العبادةُ فأشملُ من الدّعاءِ؛ فإنَّ الدّعاءَ مستعملٌ في العبادةِ، فالتّعبيرُ في الآيةِ أنّهم كانوا يتوجّهونَ إليهم، ويشركونهُم، والدّعاءُ أظهرُ أنواع العبادةِ؛ ففيهِ تَوَجُّهٌ جسديٌّ وقلبي إلى المعبودِ، فكان اختيارُ فعلِ الدُّعاءِ إصْرارًا منهم على إشراكِهم.

الإلقاء والرّمي والطَّرح:

الـطّـرحُ عـامٌّ، والـــرّمـــيُ لـلأجـنـاسِ، والإلقاءُ لِما كانَ مقترنًا بالذّنبِ والإثمِ والكذبِ

وفي حديثِ الأصنامِ أو الأوثانِ لشركائِهم وتكذيبِهم قولهُم: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ جاءَ بفعلِ الإلقاءِ المقترنِ بالقولِ، وهوَ بمعنى الطّرحِ، ثمَّ أصبحَ معروفًا أنْ يكونَ الإلقاءُ لكلِّ طرحٍ مأخوذًا من "أنّ قومًا منَ العربِ كانوا إذا أتَوا البيتَ للطّوافِ قالوا: لا نطوفُ في ثيابٍ عصينا اللّه فيها، فيلقونها"[2] ولَمّا كانَ سياقُ الجملةِ في الكذبِ أوردَ فعلَ الإلقاءِ مؤْثِرًا إياهُ على مرادفهِ: الطّرحِ؛ فإنّهُ يدلُّ على جنسِ الفعلِ[3]، فهوَ معنى عامٌّ، أمّا الرّميُ؛ فمستعملٌ لما كانَ جنسًا من المادّةِ منْ حجارةٍ أوْ سهمٍ أوْ نحوهِ[4]، فكانَ الأليقُ والأنسبُ استعمالَ فعلِ الإلقاءِ الدّال على الذّنبِ والإثمِ والكذبِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 534.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 530.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رمي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»